المبادىء البنوية السوسورية وتطبيقاتها على مختلف أنظمة الاتصال : دراسة حالة خصائص الدليل

محمود إبراقن
أستاذ السيميولوجية والسينما
بمعهد علوم الاعلام والاتصال
لجامعة الجزائر .

لعل الفكرة الرئيسية التي أتي بها فردينان ده سوسورFerdinand de SAUSSURE تبقى ممثلة في مشروعه الطموح ، اذ دعا الى ضرورة انشاء علم أدلة عام UNE SEMIOLOGIE GENERALE يتولى دراسة حياة الدلائل داخل الحياة الاجتماعية . وبالتالي لا يكون علم اللسان الا جزء من هذا العلم العام .

وتعد محاضراته الخصبة للغاية في علم اللسان العامCOURS DE LINGUISTIQUE GENERALE مرجعا أساسيا لكل الدراسات اللغوية الحديثة بل لكل الدراسات والعلوم المؤسسة أكاديميا .

يمكن تقسيم الأفكار البنوية[1] التي جاء بها سوسور الى قسمين رئيسيين : قسم يتعلق بمميزات اللسان البشري في خصوصياته (أي من خلال خصائص الدليل) وهي ستة . وقسم يدرس الجدلية القائمة بين الوضع Code من جهة وتأديته من جهة أخرى – بشكل عام –

وتتمثل في ثلاث ثنائيات : آنية Synchronie / زمانية Diachronie ، لسان Langue / كلامParole ، وتركيبية Suntagmatique / استبدالية Paradigmatique .

ويتفق معظم الباحثين على أن هذه المبادىء مجتمعة هي التي تشكل كليات أو قوانين UNIVERSAUX اللسانيات البنوية بصفة خاصة وقوانين علم اللسان بصفة عامة .

يشكل القسم الأول من هذه الأفكار السوسورية والمتمثل في دراسة حالة خصائص

الدليل اللغوي موضوع هذه الدراسة . قبل أن نتصفح الخصائص البنوية التي يتميز بها الدليل اللغوي ومدى تطبيقاتها على الأنظمة السيميولوجية أي خارج نطاق علم اللسان ، ارتأينا تقديم لمحة عن السياق الفلسفي واللغوي الذي ظهر فيه الرجل .

أ . السياق الفلسفي واللغوي

يمكن تسليط الضوء على هذا السياق من خلال ثلاثة عوامل : أهمية العامل الاجتماعي ، مذهب الانضماميين وأهمية مفهوم الكل .

1) أهمية العامل الاجتماعي

كانت الأفكار التي جاء بها مؤسس المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع ، اميل دوركايم[2] ، على اثر أوغست كونت ، تتمثل أساسا في تنبيه لأهمية العامل الاجتماعي : بمعنى أن أفراد المجتمع - بسبب تعايشهم - يكونون وحدة ذات شعور جمعي (أي مجموع الاعتقادات والعواطف التي يشتركون فيها جميعا) . وان هذه الصفات الجماعية هي سابقة لوجود الفرد وباقية بعده ومستقلة عنه ، وفي نفس الوقت تمارس ضغطا عليه CONTRAINTE SOCIALE بحيث كان يربط هذا المفكر ، في كتابه الانتحار (1897) LE SUICIDE مأساة الأفراد بالعامل الاجتماعي .

وقد أثرت هذه الفكرة الجديدة - فكرة تقدم المجتمع على الفرد وأن الانسان هو ابن المجتمع - تأثيرا كبيرا على جميع الأوساط الفلسفية واللغوية (أنطوان مي ANTOINE MEILLET 1866 - 1936) . وهذا ما دفع بهذا الأخير الى التنديد بنقائص المنهج التاريخي الذي يكتفي بالمفاهيم النحوية المعيارية أو الوصفية التقليدية والدعوة الى ضرورة استبدالها بمفاهيم نحوية أكثر منها موضوعية أي أقرب الى الدراسة العلمية للسان .

2) مذهب الانضماميين

تأسس من طرف جون لوك JOHN LOCKS (1632 - 1704) ودافيد هوم DAVID HUME (1711 - 1776) وطوره كل من ألكسندر بان ALEXANDER BAIN وهيربرت سبانسر HERBERT SPENCER وخصوصا الوضعي POSITIVISTE

الأنجليزي جون ستيوارت ميل JHON STUART MILL (1806 – 1873) .

يرى ستيراوت ميل بأن الحياة النفسية تحكمها قوانين الانضمام ASSOCIATION وأن الأحاسيس SENSATIONS التي هي بمثابة ذرات (أو وقائع ابتدائية ELEMENTAIRE) للشعور أو الوعي CONSIENCE يجب أن تدرس على حدة ولا يلتفت الى مجموعها الذي هو الشعور . ان هذه الأحاسيس [3] التي هي أساس المعرفة تتجسد في شكل صور وامتثالات ينضم بعضها الى بعض بصفة آلية بحيث أن ذكر احساس واحد يذكرنا بصفة ميكانيكية بالأحاسيس الأخرى وأن المساس باحساس واحد هو مساس بكل الأحاسيس الأخرى نظرا للارتباط بعضها ببعض بصفة عضوية ORGANIQUE كما عبر عن ذلك الفيلسوف الفرنسي هيبوليت تان HYPPOLYTE TAINE (1828 – 1893) الذي يعتبر النفس ، في هذا السياق : «كهيكل قرني POLYPIER من الصور» .

وقد انتُقد هذا المذهب بشدة من طرف المثالي هنري بيرغسون HENRI BERGSON (صاحب المادة والذاكرة MATIERE ET MEOIRE : 1896) لأنه مذهب يعتبر الجسد ككائن مطاوع PASSIF تحكمه قوانين ميكانيكية والنفس بمثابة ركام AGREGAT[4] من العناصر النفسية ينضم بعضها الى البعض الآخر بصفة آلية ولا تراعي في ذلك وحدتها وديمومتها وبنيتها .

على الرغم من هذا الانتقاد الرئيسي يبقى مذهب الانضماميين يتمتع بوجهات نظر دقيقة جدا ويعتبر المنطلق الأساسي لعدة نظريات مثل : نظرية إيفان بيتروفيتش بافلوف IVAN PETROVITCH PAVLOV (1849 – 1936) حول الانعكاسات المشروطة REFLEXES CONDITIONNES أو نظرية سيقموند فرويد SIGMUND FREUD (1856 – 1939) في التحليل النفسي .

أثبتت الدراسات التي تناولت بالبحث موضوع التكييف CONDITIONNEMENT بأن الجسد ليس بالكائن المطاوع والدليل على ذلك التدريب مثلا . وبالتالي فانه من الأحسن تقديم منبهين STIMULUS (دق الجرس ومن ثمة تقديم الطعام) ليس بصفة متزامنة ولكن بصفة متعاقبة (بفارق 5 الى 10 من الثانية) لأن المنبه الأول هو الذي يعطي الاشارة ويحضر الجسد لإعطاء رد الفعل .

3) أهمية مفهوم الكل

. تنبه الى أهمية مفهوم الكل وأنه شيء زائد ومتجاوز لكل واحد من أجزائه كل من

أوغست كونت وتلميذه ايميل دوركايم . أضاف فردينان ده سوسور الى هذا المفهوم مبدأ أساسيا يتمثل في جانب النظم نفسه : «أي التأليف الذي يستلزم أن تكون لكل جزء في داخل المجموعة صفات خاصة تشاركه فيها بعض الأجزاء وتغايره بها أجزاء أخرى : فباتصافه بتلك الصفات تكون له مع كل واحد من الأجزاء الأخرى علاقات ونسب ومجموع هذه النسب تسمى (الشكل) FORME أو النظام SYSTEME وأطلق عليها فيما بعد لفظ البنية STRUCTURE لأنهم اعتبروا في التأليف البناء . وميي نفسه لم يلتفت الى هذا الجانب الهام بل الذي لفت نظره هو النظام كمجموع أجزاء متناسقة لا التناسق في ذاته كعامل له كيان على حدة وبالاحرى تأثير في المجموع وفي أجزائه»[5] .

4) مفهوم البنية

حسب معجم تأصيل الكلمات[6] تكون لفظة STRUCTURE مشتقة من اللفظة اللاتينية STRUCTURA أي من STRURE بمعنى بني CONSTRUIRE وتعني هذه الكلمة :

في الفلسفة

البنية الفلسفية هي مجموعة منظمة ومستقلة ذات عناصر مترابطة INTERDEPENDANTS تتوظف العلاقات بين بعضها البعض حسب قوانين .

في علم النفس الاجتماعي

يعني تحليل البنيات المستترة LATENTES ، بالتقابل مع البنيات الجلية MANIFESTES : الطريقة التي تنطلق من الفرضية التي مفادها أن هذه البنيات هي التي تفسر سلوك الجماعة . وتقوم هذه الطريقة على كشف هذه البنيات النفسية من خلال روائز TESTS يخضع اليها أفراد الجماعة وتستدعي عناصرها الثنائية التقسيم أجوبة ثنائية تقسيم مماثلة (أي بنعم أو بلا) .

في علم اللسان

البنية اللغوية هي نظام علاقات تربط فيما بينها مجموعة من المعطيات اللغوية التي تتوظف حسب قوانين .

5) مفهوم البنوية

أما مفهوم البنوية STRUCTURALISME فيعني :

بصفة عامة

المذهب الذي يسعى الى ابراز أهمية الكل بالنسبة الى الفرد وكذلك آنية SINCHRONICITE الوقائع بدلا من تطورها وأخيرا العلاقات التي توجد فيما بين هذه الوقائع (أي بدلا من الوقائع نفسها في طابعها المتباين المجزء PARCELLAIRE) .

في علم اللسان

نعني باللسانيات البنوية : النظرية التي تعتبر اللسان كبنية أي كمجموعة قوانين بمعنى كمجموعة من العناصر التي تكون كلا وفي نفس الوقت يقيم كل عنصر من هذه العناصر علاقات شكلية FORMELLES فيما بينها .

وهذا ما أتى به فردينان ده سوسور الذي أعطى - لأول مرة في تاريخ العلوم الإنسانية - تعاريف دقيقة تناولت بجدية فائقة كل مميزات اللسان البشري .

فأصبحت البنية ، بعد ظهور هذا الرجل ، تعني ما يلي :

«البنية هي التي لا يمكن تعريفها الا بالرجوع اليها كبنية (أي كنظام) أي بالرجوع الى علاقاتها الداخلية (أي بين الدال والمدلول مثلا) بدلا من علاقاتها الخارجية (أي الاطار الخارجي : الاجتماعي والسياسي والتاريخي الخ) . لأنها تتوظف على أساس تناقضاتها الداخلية فقط»[7] .

ب . دراسة حالة خصائص الدليل اللغوي وتطبيقاتها على الأنظمة السيمولوجية

يتميز الدليل اللغوي ، منذ سوسور ، بست خصائص أساسية وهي ، على التوالي ، كما يلي :

1 - اللسان كنظام دلائل ،

2 - نظرية الدليل : الدال والمدلول ،

3 - الطابع الاعتباطي ،

4 - التسلسل الخطي LINEARITE ،

5 - الطابع المميز DISCRET ،

6 - التقطيع المزدوج DOUBLE ARTUCULATION .

1 - اللسان هو نظام دلائل

أي أن اللسان هو نظام وهذا النظام يتكون من دلائل ، وكل دليل لا قيمة له

الا بالتقابل مع الدلائل الأخرى داخل هذا النظام . بعبارة أخرى ان الدليل لا يتحدد الا في اطار مجموعة الدلائل الأخرى أي بواسطة العلاقة مع الدلائل التي تحيط به ، فاذا عزلنا دليلا ما عن النظام الذي يعطي له قيمته فاننا لا نستطيع تعريفه . اذن . فان اللسان هو نظام ترتبط فيه جميع أجزائه ببعضها البعض على أساس اتحاد الهويات واختلافها IDENTITES ET DIFFERENCES وان هذا الاختلاف الذي يمثل جوهر النظام نفسه يتم على أساس مبدأ التقابل OPPOSITION .

يرى سوسور بأن الوحدات اللغوية هي بمثابة الوحدات الاقتصادية فالقطعة من النقود أو العملة تكمن قيمتها في كون أنها يمكن لها أن تبدل بأشياء أخرى غير النقود (أي تقابل بأشياء غير متجانسة) . كما يشبه هذا اللغوي اللسان بلعبة الشطرنج بحيث أن المهم لا يتمثل في طبيعة المادة التي صنعت منها القطع (عاج ، خشب ، بلاستيك) وانما في دور كل منها ضمن الرقعة والموقع الذي تحتله فاذا نقص من عدد قطعها أو أضيف اليها فان هذا يغير بصفة عميقة من قواعد اللعبة لأن قيمة كل قطعة (من قطعها) ترجع الى الموقع الذي تحتله ضمن اللعبة .

وعليه ، يجب النظر الى الوحدات اللغوية من مفردات وجمل وأصوات ليس كوحدات منفصلة وانما كشكل مترابط لا تظهر قيمته الا من خلال ذلك الترابط بين عناصره واجزائه ومن ثمة فان تغيير موقع كلمة معينة في جملة ما ينتج عنه بالضرورة تغيير في الشكل ومعنى الجملة ككل . كما أن تبديل حرف من حروف الكلمة ينجم عنه كذلك تغيير في بنية هذه الكلمة والمعنى الذي تدل عليه .

اذا كانت بعض المفاهيم التي وضعت من قبل اللغويين غير دقيقة أو غير واضحة فان سوسور [8] يقترح الرجوع الى نظام القيم الذي يقسمه الى نوعين :

- كنظام توافق EQUIVALENCE بين أشياء من نوع مختلف .
- كنظام لا تجد فيه اللفظة قيمتها الا بالتقابل مع كل الألفاظ الأخرى أي بموجب اتفاق عرفي .

نظرا لأن وحدات اللسان هي قيم فان موضوع دراسة هذا اللسان تتجسد في دراسة هذه القيم :

أ) اعتبار القيمة من خلال جانبها المفهومي

بما أن اللفظة لا تحمل الدلالة في ذاتها فانها «يجب مقارنتها بقيم مماثلة أو بألفاظ

يكن أن تكون قابلة لأن تقابلها ، لأن مضمونها لا يتحدد فعلا الا بالنظر لما هو خارج عنها» . وهنا نستنتج فكرتين أساسيتين :

- مفهوم النظام المعجمي ومفهوم الحقل المفهومي ،
- فكرة مفادها أن «القيم هي نابعة من النظام» وأن «الجانب المفهومي للقيمة يصدر فقط عن علاقات واختلافات مع الألفاظ الأخرى من نفس اللسان» .

ب) اعتبار القيمة في جانبها المادي

ان الجانب المادي للقيمة يتكون هو كذلك فقط من علاقات واختلافات : «ان الذي يهم في اللفظة ليس الصوت في حد ذاته وانما الاختلافات الصوتية التي تسمح بتمييز هذه اللفظة عن غيرها لأن هذه الاختلافات الصوتية هي التي تحمل الدلالة» . وهنا يكون مفهوم الوحدة الصوتية متطورا بحيث أن الفونيمات هي بمثابة : «كيانات ENTITES تباينية OPPOSITIVE نسبية RELATIVES وسالبة NEGATIVES غير موجبة» لأن كل كيان لا يثبت الا بالتقابل مع الكيانات الأخرى ولا شيء يعتبر في نفسه الا بالاضافة الى غيره (أي أن الوحدة كما يقول اللغوي الدانمركي هيا لمسلاف HJELMSLENلا تحدد نفسها بنفسها وانما بمجموع العلاقات الشكلية التي تقيمها مع بقية وحدات اللسان) .

ج) اعتبار الدليل في مجموعه

يرتكز اللسان على التقابل والاختلاف في المفاهيم والأصوات . أما علاقات التقابل والاختلاف التي تقرب فيما بين وحدات النظام فهي نوعان :

- علاقات تركيبية SYNTAGMATIQUES أو اقترانية COMBINATOIRES ،
- علاقات استبدالية PARADIGMATIQUES أو ربطية ASSOCIATIFS ،

وخارج نطاق علم اللسان تكون وسائل الاتصال البسيطة اما غير قائمة على نظام دلائل واما تتمتع بنظام ولكن هذا النظام لم تحدد بعد وحداته الفعلية أي لم تدرس لحد الآن قواعد هيكلة هذه الوحدات . وهذا ما أدى باللغوي البلجيكي أريك بايسنس[9] الى أن يميز بين ثلاثة أنواع من وسائل الاتصال غير اللغوية :

1) وسائل التشوير المنتظمة MOYENS DE SIGNALISATION SYSTEMATIQUES

أي عندما تحلل الرسائل الى دلائل ثابتة وقارة . مثل : اشارات المرور بلوحاتها ومستطيلاتها ومثلثاتها .

2) وسائل التشوير غير المنتظمة A- SYSTEMATIQUES مثل الملصقة الاشهارية التي تستعين بالأشكال والألوان من أجل لفت الانتباه الى ماركة من ماركات الصابون .

3) وسائل التشوير المباشرة DIRECTS (كالكلام بحيث لا يوجد أي عائق بين الأصوات والرسالة) ووسائل التشوير الاستبدالية SUBSTITUFS التي تدرج بين المعنى والوسائل المباشرة وسيلة أو عدة وسائل أخرى كلها تقوم على الاستبدال : كالمورس الذي من أجل تحقيقه للمعنى يجب أن يمر من مرحلة الدليل (في نظام المورس) الى الكتابة الصوتية وبعد ذلك من مرحلة الدليل (في نظام الكتابة الصوتية) الى الدليل الصوتي .

وينتج عن هذه الأنواع الثلاثة علم أدلة كامل يرتكز على ثمانية فئات كبرى من وسائل التشوير لأن كل نوع من الأنواع الثلاثة يكون :

أ) اما باطنيا INTRINSEQUE أي عندما تكون هناك علاقة داخلية أي معللة MOTIVE بين معنى الاشارة وشكلها FORME مثل التشوير بشعار المضلة لمحل بيع المضلات وبشعار رأس الحصان للمحل المختص في بيع لحم الحصان ؛

ب) أو ظاهريا EXTRINSEQUE أي عندما تكون العلاقة بين المعنى والدليل اعتباطية أي اصطلاحية مثل اصطلاحية الصليب الأحمر والهلال الأخضر بالنسبة للصيدلية .

2) نظرية الدليل اللغوي : الدال والمدلول

يتألف الدليل اللغوي ، حسب سوسور ، من مضمون (مدلول SIGNIFIE) ومن تعبير EXPRESSION صوتي (دال SIGNIFIANT) أي أنه يشمل مفهوما وصورة صوتية[10] .

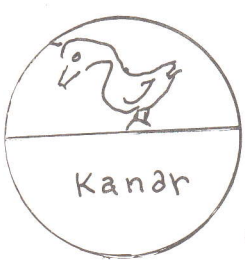

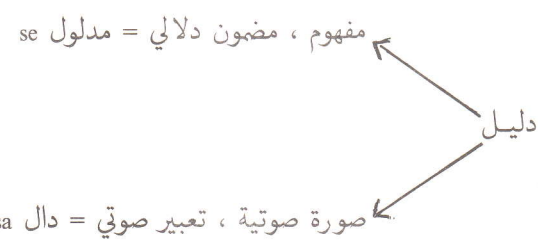

يمكن أن نشبه الدليل اللغوي بورقة يكون الوجه فيها هو الفكر والظاهر هو الصوت وبالتالي لا نستطيع فصل المفاهيم عن الأصوات التي تنقل بواسطتها . بعبارة أخرى يرتبط الدال بالمدلول ارتباطا «مبنيا» أو «بنائيا» أو «بنويا» STRUCTURALLE بحيث أن ما يمثله الأول يحيل أو يقتضي ، في الوقت ذاته ، ما يمثله الآخر . أي أن الذي ينتج عن اقتران الدال بالمدلول يمثل في : «الشكل FORME وليس في الجوهر SUBSTANCE»[11] . اذن ، فان كلا من الدال والمدلول مترابطان ومتحدان فبدون الدال لا وجود للمدلول والعكس صحيح .

ويمثل الدال الجانب الصوتي للدليل أي مجموع الفونيمات (الوحدات الصوتية الدنيا) المكونة للفظة (KANAR) أي صورة اللفظ في الذهن أو ما يسميه سوسور بالصورة الصوتية التي تعكس بصمات نفسية وتحدث ايقاعا على الحواس . ويتم الوصول الى المدلول (أي مضمون الشيء المرموز له) فقط عبر هذه العناصر أو الوحدات الصوتية المكونة للدال أي عبر الصورة الصوتية التي هي مجرد وسيلة لنقل الفكرة الذهنية والتعبير عنها .

يحصر سوسور عملية البحث عن المعنى في داخل الاطار الفونولوجي أي ضمن العلاقة بين الدال والمدلول وبالتالي فانه ليس لزاما الاستعانة بالاطار الخارجي سواء التاريخي أو الاجتماعي ، وقد أخذ بهذا الاستنتاج الرائع الباحثون في علم النفس التحليلي وكذلك في علم الأدب وبوجه الخصوص الشكلانيون FORMALISTES والبنويون STRUCTURALISTES الذين يرون بأن بنية النص الشعري أو النثري هي المنطلق الأساسي لتحديد مدى أدبية النص الأدبي .

لكن ماذا يميز الدال والمدلول عن المرجع REFERNENT؟ ان العلاقة بين الدال والمدلول هي علاقة اعتباطية أي ذات طبيعة اتفاقية عرفية تعارف عليها المجتمع وبالتالي فان هذه العلاقة غير مبررة في الواقع المادي بخلاف المرجع .

اذن ، فان الدليل هو واقع عرفي ذو وجهين : وجه جلي ويمكن ادراكه (الدال) ووجه خفي لا يمكن ادراكه (المدلول) ويتمثل في الفكرة أو المفهوم اللذين يصلان الى المرسل اليه بواسطة الدال . فنأخذ مثالا من قانون المرور (الأضواء الثلاثة) :

نجد بأن الدال يتجسد في الضوء الأحمر لأنه جلي ويمكن ادراكه بخلاف المدلول الذي يتناسب مع مفهوم «المرور ممنوع» .

ومن جهته ، يمكن لهذا المدلول : «ان يحيل الى عدة مراجع REFERENTS لأن هذا المرور الممنوع يمكن أن يخص : «فئة / أ / أي الذين يريدون مواصلة طريقهم بدون دوران» أو «فئة / ب / أي الذين يريدون تحقيق دوران ما في ذلك المنعطف» الخ[12] .

3) الطابع الاعتباطي

حسب النظرية السوسورية تكون العلاقة الموجودة بين وجهي (وجه الدال ووجه المدلول) الدليل اللغوي غير «طبيعية» (بخلاف الرمز) أي أنها اصطلاحية ومجرد اتفاق أو تعاقد بين أعضاء الجماعة اللغوية . والدليل على اصطلاحية الدليل اللغوي نذكر تعدد الدلالات (أو التسميات) التي تختلف بصفة جذرية عن بعضها البعض بالنسبة لنفس واقع مدلول ، حتى وان تعلق الأمر بلغتين متجاورتين بشكل كبير كالفرنسية والايطالية . مثال السيارة : بالفرنسية VOITURE وبالايطالية MACHINA .

وقد كانت هذه الفكرة موجودة منذ أرسطوطاليس ARISTOTE (384 – 322 ق . م) . وطورها كل من لا يبنز GOTTFRIED. W. LEIBNEZ (1646 – 1716) وكوندياك Etienne Bonnot de CONDILLAC (1714 – 1780) وويتني WILLIAM D.WHITNEY(1827 – 1894) . ويرجع فضل سوسور الى جعل هذا الموضوع منتجا : فبه يتم التمييز بين ما هو دليل لغوي وما هو ليس بهذا الدليل .

ويترتب على الطابع الاعتباطي طابع الوجوب NECESSAIRE الذي يمثل علاقة داخلية للدليل نفسه ، أي بين الدال والمدلول بحيث أنه عندما يتم وضع هذه العلاقة ، داخل لغة معينة ، تصبح مفروضة على الجميع وليس بوسع أي فرد تغيير أي شيء في هذا التناسب CORRESPONDANCE بين الدال والمدلول . اذن ، وحسب طابع الوجوب هذا ، تكون الدلائل التي اختيرت في لغة ليست من اختيار المتكلمين بها وانما هي مفروضة عليهم . وهكذا كلما ننطق بالدال (Pwasô) كلما أثرنا في ذاكرة المستمعين مفهوم POISON ونحن لا نستطيع والحالة هذه أن نقرر بأن هذا الدال (المتألف من خمس حروف) بامكانه أن يتألف فقط من أربع وحدات صوتية دنيا .

في السيميولوجية

اذا كان الدليل في علم اللسان اعتباطيا فان الأمر يختلف بالنسبة للصور البصرية

أو الصوتية (صورة فوتوغرافية ، ضجيج) بحيث أن علاقتها بالواقع ليست كلها [13] اعتباطية . انها قد تكون – جزئيا أو كلية – معللة MOTIVE مثال : يمكن أن تكون اشارات قانون المرور اما اعتباطية (الأضواء الثلاثة : الأحمر والبرتقالي والأخضر) أو معلّلة :

حذاري المدرسة ، حذاري المستشفى

4) التسلسل الخطي

بمعنى أن دال الدليل اللغوي هو ذو طابع متلاحق وذو طبيعة سمعية وفق مسافة في شكل خط متصل وبالتالي فانه يرسل ويستقبل ليس في آن واحد وانما يتم ذلك بصفة متعاقبة على المحور الزمني . وهذا راجع الى أن الجوهر SUBSTANCE الصوتي (الانجازات الصوتية) هو الذي يقوم عليه نظام اللغة وبدونه سوف لن يكون هناك مبرر لهذا التسلسل الخطي . اذن ، فان وحدتين لا تحتلان أبدا نفس الموقع في مدرج الكلام CHAINE PARLEE وبالتالي فإن قيمتها تكمن في تعاقبها وتباينها داخل هذا المدرج . كما يجب أن يكون موقعها في هذا المدرج مميزاً DISCRET ومغيراً للمعنى . مثال :

(1) محمد ضرب علياً و(2) علي ضرب محمداً .

ويمكننا هذا التسلسل من التمييز بين نوعين من الأنظمة : الأنظمة التي تقع دوالها SIGNIFIANTS في الزمان (مثل الموسيقى ، اللغة المنطوقة والحكاية) والأنظمة التي تنتظم وحداتها حسب الفضاء . (مثل : الرسم ، الصورة الفوتوغرافية الخ) ، وهذا ما دفع أريك بايسنس Eric BUTSSENS[14] الى أن يقابل اللسان مع أنظمة الاتصال البصرية (كالاشارات البحرية والرسم الصناعي) التي تبدي وجودها من خلال عامل الفضاء .

5) الطابع المميز

بما أن اللسان هو نظام من الدلائل المحدودة العدد فإن هذه الدلائل لا تكون الا وحدات مميزة أي تتميز عن بعضها البعض وتكون قابلة للاستبدال . تكون العلاقة بين

حرفي / ر / و / غ / في اللغة العربية علاقة مميزة PERTINENTE لأن استبدال حرف / غ / بحرق / ر / يؤدي الى اختلاف في معاني الكلمات مثلا راب / غاب .

أما في اللغة الفرنسية ، فتكون العلاقة بين هذين الحرفين مجرد علاقة تبادلية COMMUTATIVE لأن الاختلاف بينهما هو لهجي فقط وليس مميزا DISCRTEوبالتالي فان الاستبدال بينهما لا يكون له أي انعكاس على الدلالة : بيير = بييز .

وهكذا فان الحروف التي تؤلف الكلمة MORPHEME هي وحدات مميزة لأن كل ابدال في حرف ينجر عنه تغيير ملحوظ في هيأة الكلمة . مثال : التقابل بين الوحدتين المميزتين / ش / و / ج / في شائع وجائع ، وتكون الكلمات بدورها وحدات مميزة بحيث أن ابدال كملة / موقد / بكلمة / مار / في جملة «المارقد انكسر» يغير جذريا من المعنى .

اذن ، فان الدليل المميز هو الدليل الذي لا تكمن قيمته الا اذا أثبت وجوده في ذلك اللسان أي بتقابله مع بقية الدلائل الأخرى التي تكون بالضرورة مغايرة وتفاضلية DIFFERENTIELS . وعليه ، فان الملفوظات اللغوية تتكون من وحدات مميزة وهي التي تتنوع بصفة متقطعة DISCONTINUوتستمد قيمتها من حضورها أو عدم حضورها . وهذا لا يستثني البتة تقارب بعض الدوال SIGNIFIANTS بالبعض الآخر ولكن لا يصل الأمر في ذلك الى حد الذوبان . مثل : TU (TY) و TOUT و (TU) .

يسمح مفهوم الوحدة المميزة في علم الأدلة (التحليل الحكائي NARATIVE[15] بتمييز الفواعل الحقيقيين ACTANTS عن أهلياتهم وصفاتهم . مثال إن الفاعل الحقيقي للفعل (فاعل SUJET) يمكن أن يكون عظيما أو محتالا (مسند PREDICAT) .

6) التقطيع المزدوج

تعد صفة التقطيع المزدوج الصفة الأساسية التي تميز الألسنة البشرية عن بقية أنظمة الاتصال الأخرى .

على الرغم من أنها بقيت فترة طويلة من الزمن غامضة الا أنها هي التي كانت تميز ما بين لغة الانسان وصيحة (التي تعتبر غير انسانية وغير «مقطّعة») الصبي أو المريض أو المجنون أو الغول . بعبارة أخرى ، كانت هذه الصفة هي التي تميز ما بين الاتصال البشري والاتصال الحيواني .

ان هذه الصفة التي وضعها ، في شكلها النهائي ، أندري مارتيني André MARTINET أحد أتباع سوسور ، هي فكرة قديمة وقد تصورها أرسطوطاليس نفسه . أما سوسور ، فيتمثل فضله في هذه الملاحظة الأساسية لعلم اللسان الحديث : «يمكن أن يقصد بالتقطيع سواء تجزئة مدرج الكلام الى مقاطع صوتية SYLLABES أو تجزئة مدرج الدلالات الى وحدات ذات معنى»[16] .

يعني اللغوي الفرنسي مارتيني [17] ، صاحب الفرضية الوظيفية ، بالتقطيع المزدوج ان اللغة البشرية ، بخلال اللغات الأخرى (كالايماءة GESTES والموسيقى ولغة الحيوانات) مهيكلة على مستويين : في المستوى الأول ، يكون التقطيع الأول عندما يجزء الملفوظ اللغوي الى الوحدات الدالة (كالتراكيب والكلمات) وهذه الوحدات الصغرى المتعاقبة يطلق عليها اسم عناصر دالة نحوية MONEMES (أو صرفية MORPHEMES) .

مثال : يتألف الملفوظ L'ENFANT DORMIRA من خمس عناصر دالة نحوية L-ãfã Dorm-ir-a وكل عنصر من هذه العناصر الدالة يمكن أن يستبدل ، في نفس المحيط ، بعناصر دالة أخرى تقع على محور التعاقب AXE PARADIGMATIQUE كما يمكن لهذه العناصر أن تقع ، في محيط مختلف ، عندما تقرن بعناصر دالة أخرى على المحور التركيبي AXE SYNTAGMATIQUE .

في المستوى الثاني ، يتمثل التقطيع الثاني في تجزئة العنصر الدال النحوي بدوره الى وحدات متعاقبة أصغر ومجردة من المعنى (أي الى الوحدات المميزة UNITES DISTINCTIVES ويسميه بالوحدات الصوتية الدنيا أو الحروف PHONEMES . مثال : تتشكل كلمة ENFANT من جهتها من ثلاثة حروف (ãfã) .

يمكن لكل حرف من هذه الحروف أن يستبدل بحروف أخرى في نفس المحيط أو يقرن بحروف أخرى لكي يكون عنصرا دالا مختلفا .

يسمح المستوى الأول من التقطيع (بخلاف المستوى الثاني) من تكوين عدد لا متناهي من الرسائل وذلك فقط على أساس تلك العناصر الدالة المكونة لأي لسان . أما اللافتات التجارية والاشهارية والاشارات الرمزية والاعتباطية في كل من قانون المرور والخرائط والرسم الصناعي والاصطلاحات الكيميائية والرياضية وكذا أوضاع التلغراف فانها عبارة عن أنظمة من الدلائل أو الرموز التي لا تعرف الا التقطيع الأول أي التجزئة الى الوحدات الدالة . لنأخذ الصيغة الرياضية التالي : 2 + 3=5 .

ان كلا من الدوال 2 ، 3 ، = ، 5 لها مدلول أي يمكن قرانها مع دلائل أخرى مثلا في : 6=3×2 . وعليه ، فان الصيغة 5=3+2 هي اشارة Signal يمكن تحليلها الى دلائل أصغر أي الى الوحدات الدالة . وهنا نستنتج بأن الصيغة الرياضية هي وضع مقطع CODE ARTICULE .

بعد هذه المبادىء البنوية التي وضعها سوسور في دراسته لخصائص الدليل اللغوي ، نتناول ، في دراسة لاحقة ، الفكر البنوي السوسوري في كليته أي من خلال ثنائياته الثلاث الشهيرة .

هوامش

(1) نفضل هذه اللفظة على التعابير الأخرى : بنيوية ، بنائية لأنها تستجيب لقياس نحوي ثابت : سماء : سموي ، بناء : بنوي : الخ .

(2) Emile DURKHEIM (1858 – 1917) . إن هذا المفكر (الذي كان يهتم – نظرا لانتمائه الى سلالة الرهبان – بدراسة التلمود) يربط الظواهر الأخلاقية بالظواهر الاجتماعية التي يعتبرها بمثابة أشياء مستقلة عن الفرد وضميره الفردي . من أهم أعماله : تقسيم العمل الاجتماعي (1893) وقواعد منهج علم الاجتماع (1895) كنص منهجي مميز .

(3) Sillamy NORBERT : Dictionnaire usuel de psychologie, Paris, Bordas, 1983, pp. 61-62.

(4) مادة أو كتلة متألفة من عناصر أساسية مميزة وموحدة بين بعضها البعض بصفة حميمية وصلبة كركام التربة sol مثلا .

(5) عبد الرحمن الحاج صالح : «مدخل الى علم اللسان الحديث : اللسانيات» ، مجلة يصدرها معهد العلوم اللسانية والصوتية لجامعة الجزائر ، المجلد الثاني (1972) ، ص 39 .

(6) DAUZAT Albert, DUBOIS Jean, MITTERAND Henry : Dictionnaire étymologique, Paris, Ed. Larousse, Coooll. Référence, 1989, p. 715

(7) LEPSCHY G.C : la lingnistique structurale, Pariss Ed. Petite bibliotheque Payot, 1976 .

(8) Cité par DUBOIS Jean, GIACOMO Mathé : Dictionnaire de linguistique, Paris, Ed.

(9) BUYSSENS Eric : Les Langages et les discours, essai P.U.F., 1967 p. 235. cité, 1943, 98 p. Réédité sous le titre : La Communication et l'articulation linguistique, de linguistique fonctionnelle dans le cadre de la sémiologie, Bruxelles, Office de la publi- Librairie Larousse, 1973, p. 278.

(10) BAYLON Christian, FABRE Paul : Initiation à la linguistique, France, Ed. Fernand Nathan, 1975, pp. 5-6.

(11) LEPSCHY G.C. : La Linguistique structurale, op. cit., p. 50

(12) JACQUINOT Geneviève : Image et pédagogie, Paris, Ed. P.U.F. l'Educateur, 1977, p. 199.

(13) FAGES Jean-Baptiste, PAGANO Christian : Dictionnaire des media, France, Maison Mame, 1971, pp. 22-23.

(14) Cité par MOUNIN Georges : Introduction à la sémiologie, Paris, Ed. de Minuit, 1970, p. 72.

(15) FAGES Jean-Baptiste,PAGANO Christian : Dictionnaire des media, op. cit, p. 83.

(16) Cité par MOUNIN Georges : Clefs pour la linguistique, Paris, Ed. Seghers. Coll. Clefs, 1971, p. 53.

(17) Cité par DUBOIS Jean, GIACOMO Mathé : Dictionnaire de linguistique, op. cit. pp. 49-50.